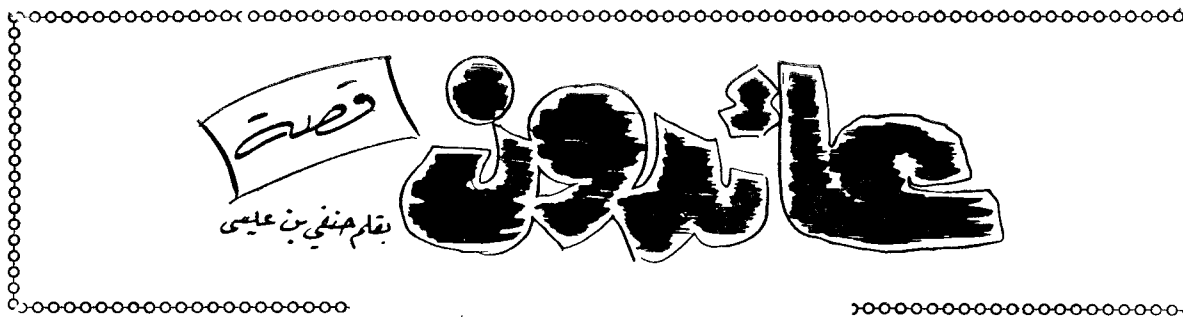

عندما استيقظ الاستاذ سمير من النوم ذلك الصباح ، كانت الشمس قد ارتفعت في السماء وكانت ترسل اشعتها عبر اسجاف النافذة . وتمطى الاستاذ سمير في الفراش ، وفرك عينيه ثم قام الى النافذة وفتحها . انها تطل على نهر بردى الذي لايبعد كثيرا عن داره . وملأ رئتيه بالهواء الطلق ثم استدار الى ساعة الجدار . كانت متوقفة عن العمل . وبلغته اصوات مختلفة من المطبخ : انها زوجته التي تعد طعام الغداء . وتذكر ان هذا اليوم يوم عيد وان عليه ان يقدم هدية الى زوجته كما تعود ان يفعل ذلك منذ زمن بعيد . وفكر في امر هذه الهدية بعض الوقت . ولكن لم يستطع ان يقرر شيئا ، ووقع حائرا في اختيار الهدية المناسبة . سيفكر في الامر مرة اخرى . اما الان فهو يشعر بالجوع والوهن الشديد لذلك لايستطيع ان يركز انتباهه على شيء . لاشك ان الساعة تقارب الحادية عشرة . وحاول ان يتذكر تاريخ اليوم ولكنه لم يستطع واستعان بمفكرة الجيب واخذ يقلب صفحاتها ، كان في يوم الخميس الماضي قد القى بعض الدروس على طلاب التجهيز الاولى وفي يوم الجمعة زار بعض الاقارب وفي مساء ذلك اليوم رافق زوجته الى السينما . اما في هذا اليوم بالذات فقد وجد الصفحة خالية بيضاء . فلم يرتبط بمواعيد وليس عليه ان يقوم بأي عمل . انه يوم من ايام العيد ويستطيع ان يتصرف في هذا اليوم كما يشاء .ولاول مرة منذ زمن بعيد شعر انه حر من جميع الالتزامات والقيود .

كانت ايامه متشابهة الى حد بعيد . وكان ينظمها بشكل لايختلف فيه اليوم عن الامس ، والامس عن الذي قبله . فلم يكن يقوى على التغيير . وكان عزيزا عليه ان يحدث في البرنامج الاسبوعي الرتيب اي تحوير .

ومنذ ان تخرج من جامعة لندن استاذا للغة الانجليزية رجع الى دمشق واشتغل في التدريس وتزوج كما يفعل اغلب الناس في مثل سنه بعد التخرج .

ان حقيقة الواقع الذي يعيشه بدأت تنكشف له . انه استاذ مرموق ناجح في الحياة ، تزوج امرأة جميلة يحسده عليها كثير من الناس . ولكنه قد تجاوز الاربعين من العمر من غير ان يكون له اولاد . انه بدأ يشعر بحنين الابوة يدب الى نفسه رقيقا ناعما . انه اصبح يتمنى ان يمسك في يده القوية الكهلة يدا صغيرة . وان يسمع في ارجاء بيته اصواتا رقيقة مرحة . هل يمكن ان تستمر الحياة على هذا الشكل الرتيب من غير ان يفكر في مشاريع المستقبل ؟ ولاول مرة في حياته تساءل : لماذا اعيش ؟ وقال في نفسه : انني كائن موجود يعيش ، وحتى هذا الوجود لااحسه كحقيقة لاتقبل الشك . بل هو وجود غامض مبهم المعالم . وتاهب للخروج ، فقد كان يحس برغبة شديدة الى الهواء الطلق . ومر على المطبخ حيث كانت زوجته تعد الطعام ولكنه لم يقل لها شيئا ولم يكلمها فقد وقف على الباب وتاملها لحظة على غير علم منها ثم خرج الى الشارع وركب اول سيارة باص صادفها في الطريق ، لا على التعيين . بعد دقائق وصل الى الغوطة ونزل من السيارة بعد ان بلغت السيارة اخر محطة . وبدأ يسير على الاقدام . ونظر حواليه فتعجب كيف يمكن ان تكون الطبيعة ـ جميلة الى هذا الحد وكيف غفل عنها طوال هذه المدة منزويا في داره ومنهمكا في مشاغله . وتذكر كيف كان في صباه يقوم برحلات طويلة مشيا على الاقدام . وقد وضع كيسا ثقيلا على ظهره حتى اذا مرت به سيارة استوقفها وطلب من سائقها ان يوصله الى اقرب مدينة .

لم يكن يدري الى اين يتجه ولا اين سيقف به السير . لقد اعجبه عبث النسيم بخصلات شعره ، وتملكته نشوة من يحس انه اصبح حرا من جميع القيود التي تفرضها الحياة ، فراح يغني اغنية لفيروز بصوت خافت اول الامر ثم مالبث ان رفع صوته وقال في نفسه : « ليس صوتي رديئا الى الحد الذي كنت اتصور » . وابتسم لهذه الفكرة ، ثم نزع عنه الجاكيت واخذ من جيبه سيجارة وراح ينفث دخانا كيفما كانما يريد ان ينفث مع الدخان هموم الحياة . وسمع وراءه زمور سيارة فخطر بباله ان يجرب مرة ثانية مغامرات الشباب ، ووقف في منتصف الطريق وأشار الى السيارة أن تقف ، ففتح له السائق باب السيارة وركب بخفة ورشاقة وغاصت بهما السيارة بين الاشجار المصطفة على جانبي الطريق .

لم يكن يدري اين تتجه السيارة ، ولم يكن يهمه ان يعرف ذلك ، أهم شيء بالنسبة اليه ان تبتعد به عن الاجواء التي عاش فيها مدة طويلة ، عن الوجوه التي الفها حتى ملها ، عن عبودية المواعيد ، عن المدرسة وعن كل شيء يذكره بقيود الوظيفة .

ومرت ساعات وبدأت الشمس تغيب وراء الافق والظلال تمتد فتسدل على الوجود ستارا ناعما واحس بنسيم رطب لطيف لم يتعوده من قبل . وفجأة تذكر البحر . ولا شك انهما مقتربان من البحر .

منذ زمن بعيد لم يشاهد البحر ولم يقف على شاطئه الصخري متاملا حالما . كان يؤثر المصايف الجبلية القريبة من العاصمة . وسمع في البعيد انينا حزينا تبعثه باخرة مسافرة . واخيرا توقفت السيارة فلاحظ الاضواء المنعكسة على سطح البحر وابصر العمال الذين يروحون ويجيئون في حزم ونشاط . وقال له السائق : هانحن الان في مرفأ اللاذقية .

نزل من السيارة وودع السائق شاكرا ثم اتجه الى شاطىء رملي وانحنى ليتناول حفنة من الرمل وتركها تنثال خلال اصابعه ثم وقف يستمع الى اصطفاق الامواج في سكون الليل ، وسرت في جسده رعشة خفيفة ، فقد كان الجو باردا محملا بالرطوبة ورأى غير بعيد منه نارا موقدة فاقترب منها فاذا به امام طفل لايتجاوز الثامنة من عمره ، عليه اسمال بالية . كان وجهه قذرا للغاية ، فقال له الطفل :

ـ تعال معي ، لقد كنت انتظرك .

ـ تنتظرني ؟

ـ انك ترتعد من البرد . تعال معي الى بيتي .

وتناول يده وقاده الى بيت صغير مصنوع من بقايا سفينة محطمة ، وكانت في وسط البيت نار تشع الدفء ، فقال الطفل :

ـ لقد صدت هذا اليوم سمكة كبيرة وانتظرت حتى يأتي شخص لناكلها معا في هذا العيد .

وتطلع اليه على ضوء النار : كان طفلا اسود الشعر ، لامع العينين ، وكان وجهه قذرا ، ولا شك انه احد الاطفال الابرياء الذين شردهم الصهاينة المجرمون .

ـ ما اسمك يابني ؟

قطرة حنين

لم تحرق الاشجان من دمه
قطرة شوق حين يذكر الحنين
وكان يمضغ الكلام في فمه
ويعقد الجبين !
لكنه كفارس صغير
ما اوصدت في وجهه الابواب
أو انبتت احزان حب ضائع ، عذاب ،
في قلبه .. وعذبت زهور !

*

وقال يدمي قبة السكون
والصمت يضغط الصدور والعيون
الى متى تقبل التراب
تحمله في « صرة » لبيتك الحزين
وترتمي في ذكريات حبك المهين
فافتح لقبول الضياء ..
ماتت الاحباب !
ليلى ، وقيس ، والشجون
أسطورة تدوسها حوافر القرون
وارتعشت بسماته .. كأنها نشيج
والصمت كان في المدى خليج
امواجه العتمات والظلال
والنجم لا يزال ،
يكفن السماء كالثاوج !؟

*

حبيبتي ان كان كل شيء ضاع
وابحرت سفينة النسيان
ما اتعس الدموع حين بللت غلالة المساء
ما ارخص العواطف التي تهدمت وداع
تكلمي ايتها الظلال عن وفاء
توسدت احزاننا عليه ،
كما تمد ام لابنها الذراع ،
فترقص الاحلام في صفاء مقلتيه
ويرقد السرور والامان ..!

*

خطواتنا القصار تنقر الظلام
والصمت كان اروع الكلام !
كأن قطرةمن الحنين في دمه
تئز تلتهب !
وكلمة تكاد ان تفر من فمه
يا طالما وددت ان احب

القاهرة

جيلي عبد الرحمن

ـ ان جاري ابو عمر يسميني سهيل . الا تعرف الصياد ابو عمر ؟ انه صياد ماهر لقد علمني كيف اصيد السمك .

واجال الطفل نظره في ارجاء الغرفة بفخر واعتزاز كأنما يريد ان يقـــول :

انظر ماأجمل بيتي ثم قـــال :

ـ عندنا بيت اخر في مكان بعيد . ابو عمر يعرف بيتنا في يافا . هل تعلم اين توجـد يافـــا ؟

ـ نعم يابني . هل تريد ان نعود اليهـــا ؟

ـ صحيح ؟ نستطيع ان نعود الى يافا ؟ الى بيتنا في يافا ؟ قل لي متـى سنعـــود ؟

ـ في هذا اليوم يابني سنعود .

فلما فرغا من اكل السمكة قال الطفل وهو يتطلع الى الاستاذ سمير :

ـ هل انت الان مستعد ؟ هل نحن عائدون ؟

ـ نعم يابني نحـن عـائـــدون ..

وأمسك يد الطفل الصغيرة في يده وخرج معه وهو يبتسم ، وتخيل الفرحة التي سترتسم على وجه زوجته عندما تراه قد اقبل عليها بهـذه الهدية التي لم تكن تنتظرها . ثم شعر ان قلبه قد امتلأ بعواطف لـــم يحس بها من قبل ابدا .. وتبللت عيناه بالدموع واسرع الخطى نحـــو المدينـة وهـو يقول :

ـ هيا بنا يابني ، ان الطريق نحـو يافا لاتزال طويلة ..

حنفي بن عيسى